سنوات من العمل والأمل

د. محمد بن حسن الصائغ

تعود بي الذاكرة إلى عام ١٤١٤هـ حين كنت عميداً لكلية المعلمين في الرياض، وهو العام الذي شهدت فيه المملكة العربية السعودية ولادة مجلس الشورى في دورته الأولى – وإن كان العمل الشوري شهد الولادة الأولى على يد المؤسس الراحل عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود – رحمه الله.

ففي هذا العام أعيرت خدماتي للمجلس مشرفاً على إدارة الدراسات المزمع استحداثها، وكان لي شرف تأسيسها، وتعاملت في تلك المرحلة مع ثلة من أصحاب الفكر والرأي والمشورة.

وفي عام ١٤١٦هـ صدرت الإرادة الكريمة من لدن الملك فهد بن عبد العزيز – رحمه الله – بإعادة تشكيل مجلس الوزراء، وكان من بين الوزراء بعض أعضاء مجلس الشورى، ومنهم معالي الأستاذ الدكتور محمد بن أحمد الرشيد الذي عين وزيراً للمعارف (وزارة التربية والتعليم حالياً).

وفي حفل تكريمي بهيج أقامه المجلس بهذه المناسبة فاجأني د. الرشيد بقوله: يا محمد لقد انتهت إعارتك للمجلس وعليك العودة إلى الوزارة، وكرر هذا الطلب أمام معالي رئيس المجلس آنذاك الشيخ محمد بن جبير – رحمه الله –.

وهكذا عدت إلى الوزارة لأبدأ رحلة جديد ة في عالم التربية والتعليم في صيف عام ١٤١٦هـ.

مستشار وزير التعليم العالي، وكيل وزارة التربية والتعليم لكليات المعلمين سابقاً.

عقد الوزير اجتماعه الأول بمسؤولي الوزارة، وكان لي شرف المشاركة في هذا الاجتماع البعيد كل البعد عن الرسمية والبيروقراطية، تحدث فيه بأسلوبه الشائق وعبارته الدقيقة عن رؤيته التطويرية وعن مستقبل العمل التربوي في بلادنا، وأكد صعوبة المرحلة وجسامة المهمة، وعول كثيراً على مسؤولي الوزارة في النهوض بالعملية التربوية التعليمية، وأكد دعمه لكل موظفي الوزارة، ومنح صلاحيات واسعة لكل مسؤول في قطاعه، وأكد أننا نعمل في سفينة واحدة ومن أجل مهمة واحدة، وعلينا أن نعمل بروح الفريق والمنافس الشريف، وهذا لعمري بداية طيبة لكل من تسنم قيادة عمل. وقد خرج المجتمعون وكل منهم يؤمن أن مرحلة جديدة من العمل التربوي والتطوير والإصلاح قد آذنت بالانطلاق. تلت هذا الاجتماع اجتماعات عدة أكدت ما ذهب إليه في اجتماعه الأول، واتسمت بالتطوير والتقويم والمتابعة.

وفي لقاء ثنائي مع الوزير أكد أهمية إعداد المعلم الكفء القادر على التطوير والإبداع، والمترجم الحقيقي لكل قرار تربوي يتخذه قادة العمل التربوي.

وأشار إلى أن الإدارة العامة لكليات المعلمين ينبغي أن ترتبط بالوزير مباشرة، وأن يمنح مديرها صلاحية الوكلاء وكان هذا اللقاء إرهاصاً بتحويل هذه الإدارة إلى وكالة حيث صدر عام ١٤١٨هـ قرار مجلس الوزراء الموقر بتعييني وكيلاً للوزارة لكليات المعلمين.

لقد أطلق الوزير على كليات المعلمين لقب بيوت الخبرة لوزارة المعارف، وفي سبيل تفعيل دور الكليات واكتسابها شرف هذا اللقب تم وضع خطة لتطويرها أقرت في أول اجتماع لمجلس الكليات برئاسة الوزير، وقد تم بفضل الله تحقيق عناصر هذه الخطة، ومن أبرزها:

- الانعقاد الدوري لمجلس الكليات – وتأسيس المجلس العلمي – ابتعاث الكثير من المعيدين والمحاضرين في الداخل والخارج حتى بلغ عددهم سبعمائة مبتعث، وهو رقم قياسي لما شهدته الكليات في تاريخها – تطوير الخطة الدراسية واستحداث

أقسام جديدة في الحاسب واللغة الإنجليزية ومسارات للرياضيات والعلوم لإعداد معلمين للمرحلة المتوسطة والثانوية – وإصدار صحيفة شهرية باسم (رسالة الكليات) – إصدار مجلة علمية محكمة. وقد شملت الخطة العناية بالنشاط لأهميته في العمل التربوي وإعداد المعلم، حتى أصبحت الكليات خلية نحل على مستوى المنطقة ومستوى المملكة، وحقق طلابها مراكز متقدمة في المنافسة على مستوى دول مجلس التعاون، وشكلت لجان علمية لتقويم العمل الأكاديمي في الكليات، ووافق المقام السامي على أن تطبق لوائح الجامعات على كليات المعلمين. وأذكر فيما أذكر حرص الوزير على انعقاد مجلس الكليات في شهر رمضان زماناً وفي مكتبه بجدة مكاناً، وينتهي الاجتماع بمأدبة إفطار يقيمها الوزير لأعضاء المجلس، وكعادته يحرص على إكرام ضيوفه وراحتهم وبث روح الدعابة في نفوس الجميع، وينتهي المجلس برحلة إيمانية إلى رحاب بيت الله العتيق وتأدية مناسك العمرة.

شعارات تربوية

لقد اتخذ الرشيد سياسة الشعارات التربوية التي تختزل مضامين المشاريع التربوية، وتركزها في عبارات يتبناها الجميع، ويعملون من أجل تحقيقها. وهي فكرة صائبة وأسلوب عمل موفق، وكان من أهمها:

- «وراء كل أمة عظيمة تربية عظيمة».

- «وراء كل تربية عظيمة معلمون مخلصون مميزون».

- «حدودكم السماء».

- «النائم لا يتعثر».

وبدأ العمل المؤسسي في الوزارة يترسخ عن طريق اللجان الدائمة والاجتماعات الدورية والمتابعة وتقويم الإنجاز.

زيارات ميدانيـة

كسـر الدكتور الرشيد قيد الروتين، وغيّر مفاهيم الناس عن صومعة الوزير، وترجل إلـى الميدان ليقـود العمل التربـوي بنفسه ومعـه المسؤولـون، في زيارات متكـررة إلى المدارس والمناطق التعليمية، للتعرف على الواقع، وتلمس الاحتياج، واتخاذ القرارات المناسبـة من خلال الواقع الفعلي للعمل التربوي، وكلف فريق عمل بإعداد تقارير شاملة للواقع وسبل التطوير وآلياته. كان هذا على الصعيد الداخلي. أما على الصعيد الخارجي فلقـد أكـد ضـرورة الاطـلاع على تجـارب الدول الأخـرى في مجـال التربيـة والتعليم، والاستفـادة منها إيماناً منه بمواكبة التطور واللحاق بالركب المتحضر. وفي هذا الاتجاه شكلـت فرق لزيـارة عدد من الدول العربية والأجنبية وفـق منهجية وآليات واضحة، وقد رصـدت هذه الزيـارات ونتائجها في كتاب توثيقي دعم مسيـرة العمل التطويري في تلك الحقبة، وكان من ثمار هذه الزيارات العديد من البرامج التطويرية، مثل: التقويم الشامل للمدرسة، المدارس الرائدة، مفهوم التوجيه وتحويله إلى الإشراف، وعمدت الوزارة إلى الاستفادة القصوى من اليونسكو لتطوير برامجها. كما أصبحت ذات حضور قيادي مؤثر علـى المستويـات: الوطني، والإقليمي، والعربي، ومارست هـذا الدور في قيادتها للجهود المبذولة في سبيل ترشيح الدكتورغازي القصيبي -رحمه الله- مديراً عاماً لليونسكو.

المجتمع والوزارة

آمنـت الـوزارة أن كل عمل تربوي لا بد أن يأخذ بعـده الحقيقي وصداه من المجتمع، بوصفـه المقصود بالعملية التربوية، هذه الرؤيـة فتحت الباب على مصراعيه للاستماع والمشاركـة الفعلية بين الـوزارة والمجتمع. وفي هذا الإطار قامـت ندوات ولقاءات عدة تؤكـد هذا التوجه، وكان لنتائج هذه الجهود الأثر البالـغ على مسيرة التطور التي قادتها الـوزارة فـي تلك الحقبـة، واتضح ذلك من خـلال إقدام رجال الأعمـال على بناء بعض المدارس والتبرع لها وتأسيس مؤسسـة الملك عبد العزيز ورجالـه لرعاية الموهوبين، بلغـت تبرعـات رجال الأعمال لها مـا يقرب من أربع مئة مليون ريـال، إضافة إلى التبرع بإنشاء مجمعات مدرسية في عدد من المناطق بمبالغ تقارب مئتي مليون ريال.

الانفتاح الإعلامي

كان لابد من صوت إعلامي يكون حلقة وصل بين الوزارة والمجتمع المحلي، وقناة تواصل صادقة أمينة تعبر بصدق عن وجهات نظر الفريقين، اللذين يسعيان أصلاً لهدفٍ واحد. في هذا الإطار جاء الانفتاح الإعلامي الذي يعد سابقة بارزة وعملاً غير مسبوق بهذه الصورة. فتحت الوزارة صدرها للنقد البناء، ولم تضق ذرعاً بما سواه، وتعاملت مع هذا وذاك بإيجابية وبعقل مفتوح، يؤمن بحق الآخر في الاختلاف. ويقدر كل عمل يصب في خانة التطوير.

وفي أعقاب أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ م شنت الهجمات على مناهج التعليم في المملكة، وتوافد المراسلون من أنحاء العالم يستفسرون ويكتبون ويحملون فكر المناهج مسؤولية تلك الأحداث. وكانت الوزارة تستقبل العديد منهم ومن غيرهم، وكانت تتعامل مع كل ذلك بموضوعية عالية وحكمة مما ساعد على تخفيف الاحتقان.

وأذكر أنه في صباح أحد أيام الخميس كنت مع عددٍ من الزملاء في اجتماع في منزل الدكتور الرشيد لمناقشة موضوع تربوي، وقد فوجئ الوزير باتصال وزارة الإعلام لمقابلة مندوبي إحدى وكالات الأنباء العالمية فرحب بهم، وسألته مراسلة تلك الوكالة عن أمور عدة من بينها «موقف مناهج العلوم الدينية في تكوين المواقف العدائية من غير المسلمين»، فما كان من الوزير إلا أن رد بأن مناهج المملكة لا تدعو إلى ذلك، وأن الدين الإسلامي يرى لكل دينه ولا إكراه في الدين، وفتح القرآن الكريم مستشهداً بسورة الكافرون (لكم دينكم ولي دين)، وقرأ لها بعض الآيات التي تحث على التسامح، وبعد أيام عدة خرجت صحيفة الشرق الأوسط بخبر وصورة للوزير، وهو يمسك القرآن بيده، وكُتِبَ فوقها: (وزير المعارف السعودي: التلقين الببغائي في مدارسنا لم نجن منه إلا الحنظل) وهي عبارة مقتطعة من حديث معاليه في لقائه مع المشرفين التربويين في فندق انتركونتنتال يوم السبت، وليس لها علاقة بما حدث في منزله يوم الخميس، وقد استنتج البعض للأسف أن الوزير يقصد التعليم الديني، وثارت ثائرة الكثيرين، وكتبوا

ظلماً وزوراً في الإنترنت، وتحدثوا في المنابر، بينما الحقيقة شيء، وما يقولونه شيء آخر. وكان أن تعامل الوزير مع هذا الموقف السلبي بروح إيجابية.

وفي إطار الانفتاح الإعلامي الذي تبنته الوزارة أعيد إصدار مجلة المعرفة، حيث انطلقت في ثوبها الجديد، لتكون منبراً للطرح التربوي ومنبراً للنقد البناء ومساحة لمشاركة التربويين والمهتمين بالشأن التربوي داخلياً وخارجياً.

الدمج وتوحيد الجهود

عندما صدر الأمر الملكي بدمج الرئاسة العامة لتعليم البنات في وزارة المعارف ثارت ثائرة البعض، وانصب جام غضبهم على الرجل الأول في الوزارة ومن معه. اعتقاداً منهم بأن الدمج سيؤدي إلى الاختلاط. وكل ذلك قوبل برحابة صدر وسعة أفق. وفي الاجتماع الأول بعد الدمج أكد الوزير لمسؤولي الرئاسة سابقاً بأنهم مكان تقدير وترحيب، وأن كل واحد منهم سيحقق طموحه من خلال عمله، وأن ثوابت التربية والتعليم في بلادنا لا يمكن أن تمس.

التربية الخاصة ورعاية الموهبة

كان من أولويات الفكر التربوي الجديد الذي تتبناه الوزارة اكتشاف الموهبة ورعاية الموهوبين، فنقلت الدراسات النظرية إلى حيز التطبيق وسادت ثقافة رعاية الموهبة والموهوبين في المجتمع التربوي خاصة والمجتمع عامة. وتنامت هذه الثقة في وقت قياسي، لتترجم في الموافقة السامية على إنشاء مؤسسة الملك عبد العزيز ورجاله لرعاية الموهوبين مدعومة كلياً من القطاع الخاص في تجربة قد تكون الأولى على مستوى العالم العربي، بما في ذلك بناء مبنى خاص بالمؤسسة على طريق الأمير تركي الأول بالرياض. وكان من نتائج هذا التوجه تسجيل عدد من الاكتشافات والاختراعات وحصول عدد من أبناء المملكة على براءات اختراع في عدد من المجالات العلمية والحيوية.

وقد حظيت التربية الخاصة بعناية فائقة، حيث تم دمج ذوي الاحتياجات الخاصة مع العاديين، وأصبحت المملكة أنموذجاً يحتذى في هذا المجال.

الكفاءة هي المعيار

اتخذت الوزارة في تلك المرحلة معيار الكفاية المهنية أولاً وثانياً وثالثاً؛ كمنطلق في تعيين القيادات في الوزارة.. دون أي اعتبار آخر، وسرعان ما زخرت الوزارة بالكفاءات من جميع أنحاء المملكة، وارتفعت الروح المعنوية لدى غالبية العاملين، وتجسد ذلك من خلال العمل الدؤوب والشوق العارم للعمل، وعلى سبيل المثال سأله سائل في أمسية الشيخ عثمان الصالح يرحمه الله عن أنه وظف أقاربه وأصدقاءه فأجاب بأن مسؤولي الوزارة من مختلف المناطق بناء كفاءتهم وخبرتهم من جازان وعسير ومكة المكرمة والطائف وجدة والمدينة المنورة والمنطقة الشرقية والشمالية وغيرها.

التربية في بؤرة الاهتمام

بفضل الله ثم بفضل ما اتخذ في الوزارة من خطوات تطويرية وإستراتيجيات أصبحت القضية التربوية مركز اهتمام ولاة الأمر، وكان اللقاء السنوي بالملك وولي العهد وسمو النائب الثاني -رحمه الله- وسمو وزير الداخلية من أكبر الأدلة على ذلك الاهتمام والتواصل، هذا في جانب أما على الجانب الآخر فيأتي اللقاء السنوي لقادة العمل التربوي، والدراسات الاستشرافية التي ظهرت آثارها إيجابية على المسيرة التربوية في بلادنا، وفي هذه اللقاءات كان الوزير حاضراً في الجلسات مناقشاً ومحاوراً وموجهاً، فهو أول من يحضر اللقاء وآخر المغادرين، مما جعل الانضباط في الحضور والجدية في النقاش عنوان تلك اللقاءات.

المدرسة أولاً

حرصت الوزارة على أن تجعل من المدرسة بيئة جاذبة للطلاب والطالبات والمعلمين والمعلمات، يجدون في جنباتها تربية إسلامية وسطية وتعليماً عصرياً، يشحذ الهمم، ويصقل المواهب، وينمي المهارات، ويغرس حب الوطن سلوكاً في الطلاب. وقد شرعت الوزارة في الإعداد لتحقيق ذلك الهدف، وبدأت في تطبيق برنامج المدارس الجاذبة في عدد من المناطق منها: محايل عسير، والحدود الشمالية، وينبع.

الجانب الإنساني والاجتماعي

كان الجانب الإنساني والاجتماعي سمة بارزة من سمات النمط القيادي في تلك المرحلة، فتكريم الرموز التربوية والإشادة بالمتميزين بمثابة اللازمة لهذه القيادة، وقد امتدت هذه الروح الإنسانية عند الوزير إلى كل العاملين فلا تجدهم إلا مهنئين، أو مواسين، أو معزين، أو زائرين لمريض – وأسجل هنا – أن هذه الروح الإنسانية شملت كل منتمٍ إلى العمل التربوي في جميع أنحاء المملكة عن طريق برقيات التعازي أو التهنئة لمعلمٍ في قرية نائية، أصابه مصاب أو حقق نجاحاً مميزاً، مما رفع الحس التربوي والانتماء المهني لدى كل منسوبي التربية والتعليم، وأشاع روح المحبة بين الجميع.

ولعل الموقف النبيل والتوجه الإنساني عند وفاة الدكتور إبراهيم الدريس – رحمه الله – أمين عام اللجنة العليا لسياسة التعليم كان أنموذجاً لذلك لا ينسى أبداً. حيث خلدت الوزارة ذكرى الفقيد في كتاب عن سيرته، وسميت أكبر قاعة باسمه، بالإضافة إلى لقاءٍ بأبنائه وأقاربه في أول اجتماع كان يحضره ثم تأبينه والإشادة بدوره.

السفر.. الجدية والمتعة

للسفر مع الدكتور الرشيد فائدة ومتعة، إذ يتم التخطيط الدقيق لكل مهمة، ويبلغ الأعضاء بالبرنامج مبكراً، وعند السفر يكون الوزير بمثابة الأخ الأكبر متفقداً زملاءه في المطار والطائرة وفي الحافلة. وفي أول رحلة لي معه كانت لحضور لقاء مديري التعليم في تبوك عام ١٤١٧هـ وخصصت طائرة لنقل المشاركين وبعد الإقلاع فوجئنا بالوزير يطل علينا مسلماً ومداعباً قائلاً: (الله يحفظكم.. كل قيادات التعليم في هذه الطائرة). أما الرحلة البرية إلى القنفذة فقد انطلقنا بالحافلة الساعة السادسة صباحاً من مدينة جدة بصحبة الوزير، وكانت محطتنا الأولى في (الليث) وقراه وبعض مدارسه، عقدت لقاءات مع المشرفين ومديري المدارس والمعلمين، تجلت فيها روح الرشيد المشجعة على العمل، واستمرت الرحلة وكان اللقاء قبل الأخير الساعة العاشرة مساءً في بلدة (أضم)، وفي أثناء حديث الوزير مع جموع الحاضرين لمح الإرهاق والتعب على وجوه المسؤولين وفريق العمل فخاطب الحضور قائلاً: كم كان بودي الإسهاب في الحديث معكم، لولا أنني أرى

ما لا ترون، فرؤوس بعض المسؤولين المرافقين تميل ذات اليمين وذات الشمال، لأن رحلة العمل هذه مستمرة بلا انقطاع من الصباح الباكر، وخصوصاً القادمين من الرياض على رحلة السادسة صباحاً، واضطر إلى اختتام اللقاء وواصلنا المسيرة إلى القنفذة، حيث وصلنا في الثالثة فجراً، وما هي إلا ساعات حتى استأنفنا زيارة المدارس.

هذه الروح الجادة والإصرار على الإنجاز أكدت العلاقات الاجتماعية بشكل لافت بين منسوبي الوزارة، فكان (اليوم الاجتماعي) الذي يجمع مسؤولي الوزارة خارج نطاق العمل والدوام الرسمي حيث يتمتع الجميع بيوم كامل من أيام الخميس خارج الرياض في ضيافة وكالة من وكالات الوزارة في جو حميمي، تسوده روح المرح والدعابة ورياضة المشي، التي اعتادها الوزير، ونقل تجربته عملياً لزملائه، وكان أنموذجاً في هذا المجال.

أمسية الأحلام التربوية

تلقى الوزير في بداية عهده بالوزارة دعوة من «الجمعية السعودية للعلوم التربوية والنفسية» لإلقاء محاضرة بعنوان: (تعليمنا إلى أين؟) حدد فيها رؤاه وخططه لتطوير التعليم في جمع غفير من التربويين والمثقفين، وأطلق العنان لأفكار تربوية واعدة.. تحول العديد منها بفضل الله إلى حقائق على أرض الواقع، ومشاريع شاهدة على إنجازات تلك المرحلة.. حقاً إنها أمسية الأحلام التربوية الجميلة.

إنجازات نوعية

حفلت الوزارة خلال هذه الحقبة من الزمن بالعديد من البرامج والمشاريع والخطط غير المسبوقة ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

الخطة المستقبلية للوزارة (١٤٢٥-١٤٣٥هـ) - (٢٠٠٤ - ٢٠١٤م) وقد عكف على إعدادها فريق من أصحاب الاختصاص والخبرة من العاملين في الوزارة وخارجها وعقد الفريق العديد من الندوات واللقاءات وأُجري استطلاع لآراء الميدان التربوي لتحديد الأهداف والرؤية والرسالة، وحدد المتطلبات البشرية والمالية لتنفيذ تلك البرامج والمشروعات، وقد شارك في تحكيمها مرجعيات تربوية داخلية مثل الجامعات وخارجية

مثـل اليونسكو، وقد اعتمدت هذه الخطة وشرع في تطبيقها غير أنه لم يستكمل تطبيقها فيما بعد، وبدأت الوزارة من جديد وكأن شيئاً لم ينجز، وهذه لعمري كارثة في التخطيط فالعمل المؤسسي يتطلب البناء على الخطط السابقة.

ومن الإنجـازات النوعية الأخرى التي كنت مشاركاً فـي إعدادها باعتباري عضواً أو رئيسـاً لفريق العمل: إستراتيجية الإعـلام التربوي، خطة الزيـارات الميدانية للمناطق التعليمية، إنشاء مكاتب تنسيق بين الجامعات والوزارة حول قبول طلاب الثانوية العامة، ميثـاق مهنة التعليـم، مشروع اختبـارات المعلمين، مشـروع رخصة المعلميـن لمزاولة المهنـة، مشـروع جمعيات المعلميـن، مشروع مكافحـة الفقر بين الطـلاب، لجنة اللغة الإنجليزية في المرحلة الإبتدائية، تطوير التوجيه والإرشاد، مشروع رتب المعلمين.

وهـذه المشاريع وغيرها بالعشرات محفوظة في ملفات الوزارة والأمل أن ينظر فيها وأن تـرى النـور فقـد بذل في إعدادهـا جهود مضنيـة استفادت من ا لتجـارب العالمية الناجحة التي وقف عليها بعض مسؤولي الوزارة من خلال زيارات خطط لها بدقة وعناية.

وبعـد..

فإن الحديث عن ذكرياتي في وزارة التربية والتعليم في المدة من ١٤١٦هـ - ١٤٢٥هـ حديـث محبب إلى النفس، كيف لا وهو عن مرحلة تميـزت بوضوح الأهداف والمبادرة.. والطمـوح.. والعمـل المؤسسي وتحفيز العامليـن، وشحذ الهمـم، والشفافية بين الوزير والمسؤوليـن والتفانـي في الإبـداع والتجديد وسيـادة التعامل الإنسانـي الراقي وارتفاع درجة الحس التربوي بين المنضوين تحت مظلة الوزارة.

لقـد كانت حقبة متفـردة القيادة شبيهة بالأنماط القيادية فـي مؤسسات العالم الأول، فهل تجد تلك الحقبة حقها من الدراسات والبناء على نقاط القوة فيها، أم أن زامر الحي لا يطرب؟!

أمـا على المستوى الشخصي فإن العلاقات الإنسانية والصداقة الحميمة التي توطدت خلال عقد من الزمان بيني وبين منسوبي الوزارة ازدادت رسوخاً ومحبة واستمر التواصل مـع د. الرشيد أكثر من ذي قبل، كما استمر التواصل مع بقية الزملاء الكرام الذين عشت معهم أجمل أيام العمل والأمل، وسأظل أحمل لهم المحبة والمودة ما حييت بإذن الله.